حكايات ملوّنة



رسوم: حلمي التوني

# العودة إلى المنزل

محمد علي شمس الدّين

ISBN 9953-464-76 -6



alhadaek@alhadaekgroup.com

محمد علي شمس الدّين

# العودة إلى المنزل



رسوم: حلمي التوني



(١)

نَظَرَتِ ابْنَتِي الصَّغيرَةُ آسْيا، وهِيَ تَجْلِسُ بِجانِبِي، عَلى الشُّرْفَةِ المُطِلَّةِ عَلى البَحْرِ، إِلى طُيورٍ بَيْضاءَ تَطيرُ في أَوَّلِ المَساءِ، مِنَ الغَرْبِ إِلى الشَّرْقِ، عَلى شَكْلِ رَفٍّ يَتَقاطَعُ حيناً ويَتَفَرَّقُ حيناً آخَرَ، مِثْلَ مِرْوَحَةٍ بَيْضاءَ في الهَواءِ، وقالَتْ لي:



ما اسْمُ هذِهِ الطُّيورِ؟

قُلْتُ لَها:

الحَمامُ.

قالَتْ لي:

إِلى أَيْنَ تَذْهَبُ في المَساءِ؟

قُلْتُ:

إِلى مَنازِلِها.

قالَتْ:

أَيْنَ مَنازِلُها؟

قُلْتُ:

عَلى سُطوحِ المَنازِلِ.. هُناكَ.

قالَتْ:

وهَلْ نَحْنُ، لأَنَّنا نَعيشُ عَلى هذِهِ السُّطوحِ، في بَيْروتَ حَمامٌ أَبْيَضُ؟





ضَحِكْتُ، وقُلْتُ لَها:

لِلْحَمامَةِ مِنْقارٌ أَسْوَدُ، وجَناحانِ أَبْيَضانِ، فَأَيْنَ مِنْقارُكِ يا (آسْيا)، وأَيْنَ جَناحاكِ؟

فَحَرَّكَتْ طِفْلَتي ذِراعَيْها في الهَواءِ، كَما لَوْ أَنَّها تُريدُ أَنْ تَرْقُصَ، وقالَتْ:

ها هُما جَناحايَ.. ومَدَّتْ يَدَها إِلى فَمِها الصَّغيرِ، وقالَتْ:

... وهذا مِنْقاري.. ثُمَّ اسْتَطْرَدَتْ قائِلَةً:

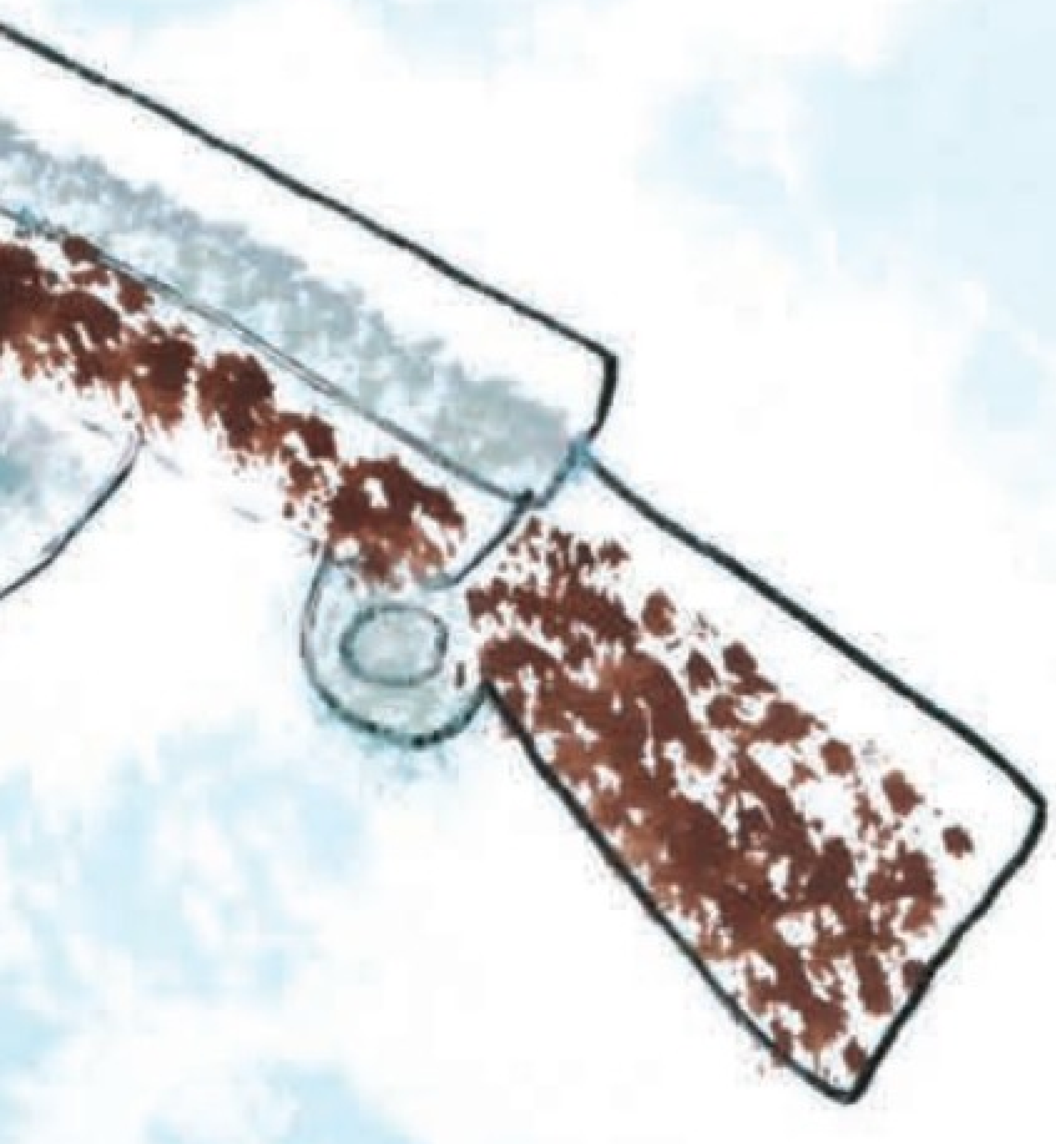
ما دامَ الحَمامُ يَعودُ إِلى مَنازِلِهِ في أَوَّلِ اللَّيْلِ، فَلِماذا لا نَعودُ نَحْنُ إِلى مَنازِلِنا؟

قُلْتُ:

هَلْ تَعْرِفينَ أَيْنَ هُوَ مَنْزِلُنا يا آسْيا؟

قالَتْ:

نَعَمْ... هُناكَ في الجَنوبِ. وأَشارَتْ بِيَدِها إِلى جِهَةٍ بَعيدَةٍ.



قُلْتُ لَها:

هَلْ تَعْلَمينَ أَنَّ هُناكَ مَنْ يُطْلِقُ عَلَيْنا النّارَ إِذا عُدْنا؟

قالَتْ:

نَعَمْ، ولَكِنْ، لِماذا لا نَطيرُ إِلَيْهِ، كَما تَفْعَلُ الطُّيورُ؟

قُلْتُ لَها:

هَيّا مَعي..



أَخَذْتُها بَيْنَ يَدَيَّ، وَضَعْتُها عَلى كَتِفَيَّ، وقُلْتُ لَها:

أَغْمِضي عَيْنَيْكِ، سَوْفَ نَعودُ مَعاً إِلى المَنْزِلِ.

أَغْمَضَتِ ابْنَتي جَفْنَيْها الجَميلَيْنِ. هِيَ كانَتْ تَعْلَمُ أَنَّنا نَلْعَبُ مَعاً لُعْبَةً، مِنْ تِلْكَ الأَلْعابِ الَّتي يَقومُ بِها الأَطْفالُ عادَةً، ويَعْرِفونَ أَنَّها غَيْرُ حَقيقِيَّةٍ، وأَنَّ مَصْدَرَها الخَيالُ. ومَعَ هذا، فَقَدْ فَعَلَتْ ذَلِكَ، واسْتَسْلَمَتْ لِلُّعْبَةِ.

أَخَذْتُ بِيَدِها، ومَشَيْنا مَعاً في الهَواءِ، في اتّجاهِ المَنْزِلِ.

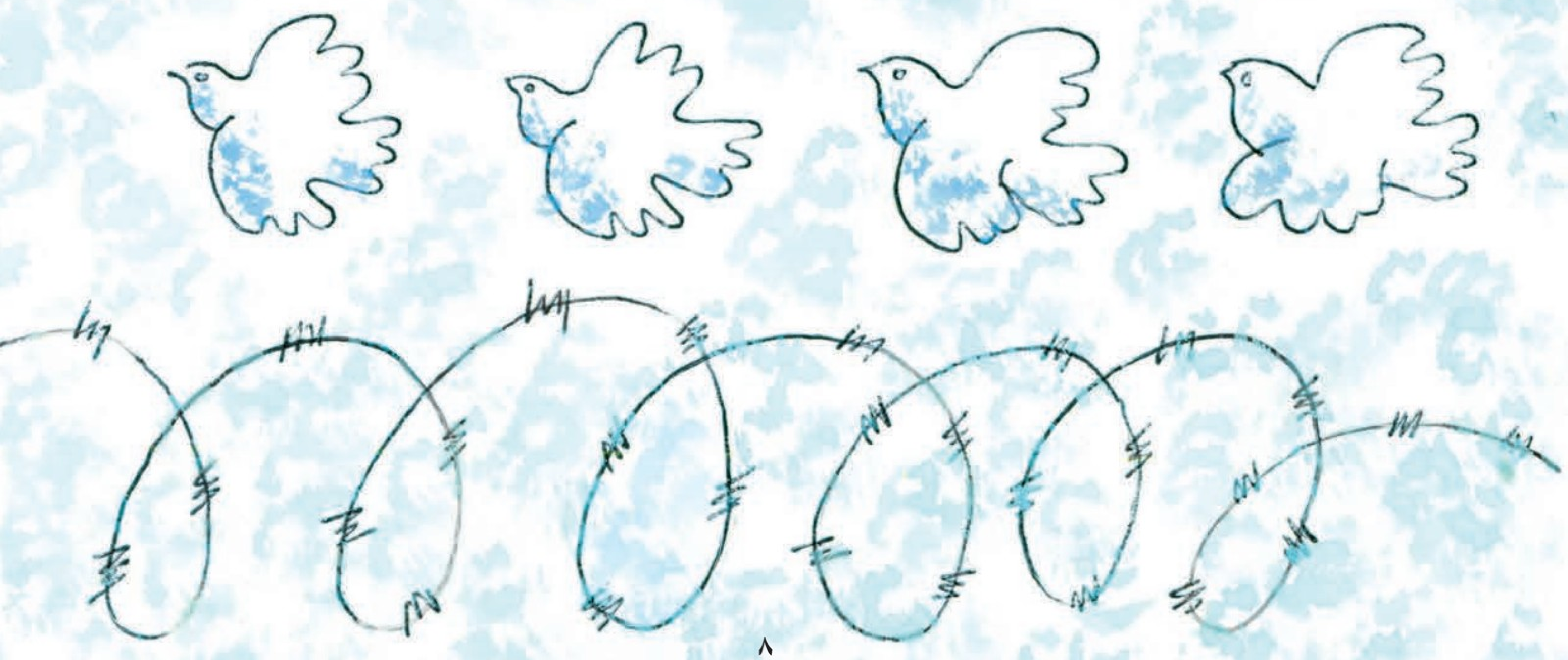




(٢)

كانَتِ السَّماءُ الَّتي طِرْنا فيها، سَماءً صافِيَةً بِلا غُيومٍ. عَلى الأُفُقِ شَمْسُ تَمّوزَ، تَرُشُّ أَضْواءَها الذَّهَبِيَّةَ عَلى الحُقولِ، فَيَظْهَرُ كُلُّ شَيْءٍ مِنْ تَحْتِنا، وكَأَنَّهُ يَرْقُصُ، في مِهْرَجانٍ مِنَ الأَضْواءِ، والقُرى المَنْشورَةُ عَلى السُّهولِ وبَيْنَ الجِبالِ، تُطْوى مِنْ تَحْتِنا طَيّاً، ونَحْنُ نُحَلِّقُ في هَواءٍ ناعِمٍ، كَأَنَّنا نَطيرُ عَلى بِساطٍ سِحْرِيٍّ مِنْ «أَلْفُ لَيْلَةٍ ولَيْلَةْ».

لَمْ يَكُنْ ثَمَّةَ حَواجِزُ شائِكَةٌ في الهَواءِ، تَمْنَعُنا مِنَ التَّقَدُّمِ نَحْوَ الجَنوبِ. كانَتْ تَحِفُّ بِأَقْدامِنا العارِيَةِ، جَوانِحُ طُيورٍ كَثيرَةٍ، تَدورُ حَوْلَنا، أَوْ تُرافِقُنا أَحْياناً، عَلى شَكْلِ سِرْبٍ[1] صَغيرٍ.





الماعِزُ الجَبَلِيُّ يَسْرَحُ بَيْنَ الصُّخورِ، والرّاعي الجالِسُ عَلى الصَّخْرَةِ يُراقِبُ القَطيعَ، وقَدِ اتَّكَأَ عَلى عَصاهُ، ووَضَعَ الزّادَ ومَطَرَةَ الماءِ إِلى جانِبِهِ.

ورُبَّما وَصَلَ إِلى آذانِنا صَوْتُ أَحَدِ الفَلاّحينَ، وهُوَ يَجْمَعُ الحَصادَ مِنْ حَقْلِهِ، ويُغَنّي:

«آهْ يا ريمْ[٢]

يا جايِيْ مِنْ كَفْرا

آهْ يا ريمْ

يا بو حَطَّهْ صَفْرا

آهْ يا ريمْ

سَلِّمْ عَمَحْبوبي»...



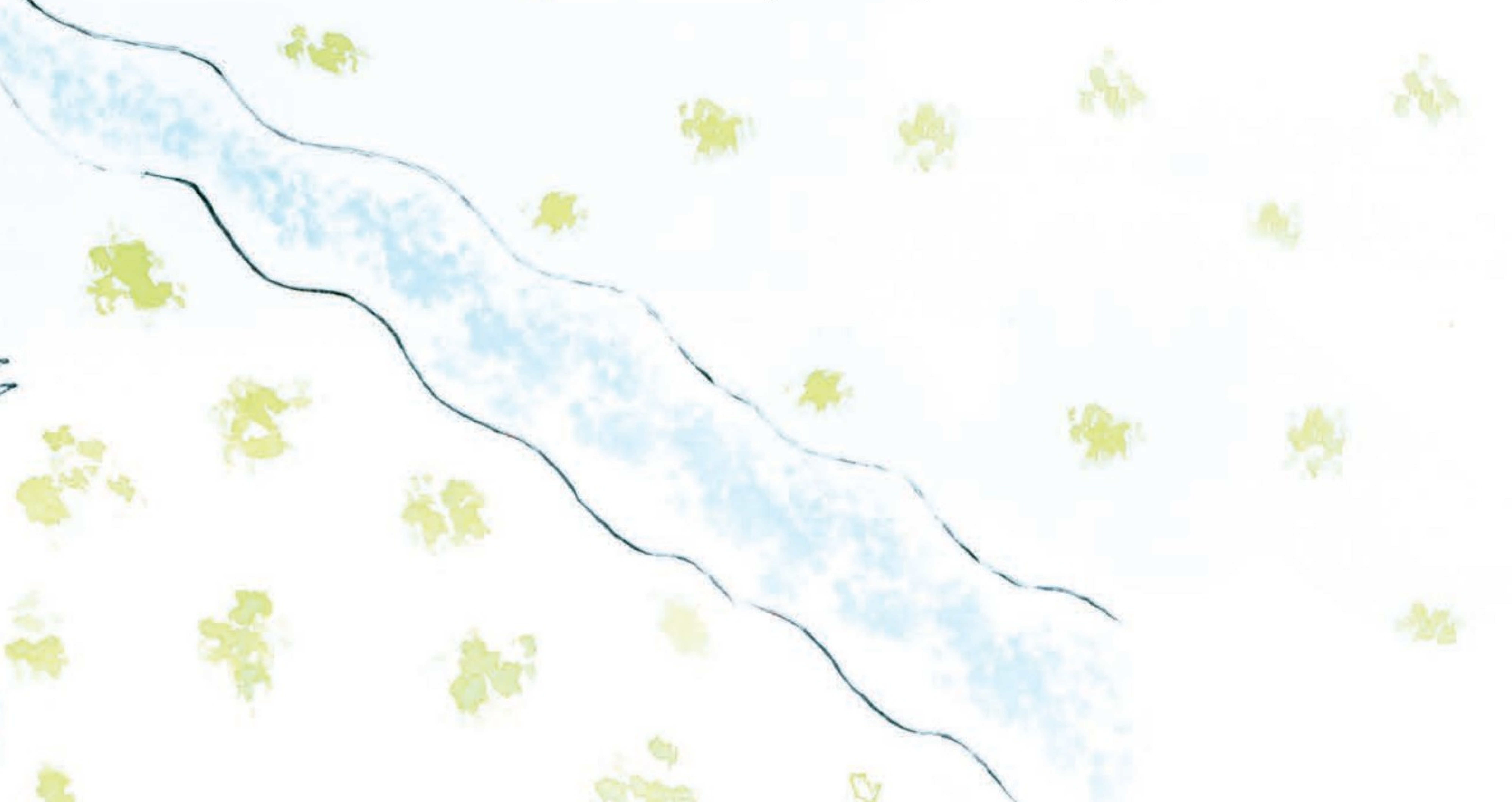


ها هُوَ نَهْرُ اللَّيْطاني، يَشُقُّ الحُقولَ، مِثْلَ شَرْيانٍ طَويلٍ أَزْرَقَ مِنَ المِياهِ، وتَنْتَشِرُ على جانِبَيْهِ المَزارِعُ والبَساتينُ. بَعْضُ السّابِحينَ يَسْتَحِمّونَ في النَّهْرِ، يُشارِكُهُمْ في ذَلِكَ أَوْلادُهُمْ، والنِّساءُ تُعِدُّ الطَّعامَ، عَلى مَواقِدَ مِنَ الحَجَرِ بَيْنَ الأَشْجارِ.

آهِ ما أَجْمَلَ هذِهِ القُرى الهادِئَةَ، وأَعْذَبَها... وما أَجْمَلَ مَشْهَدَ الدُّخانِ وهُوَ يَتَصاعَدُ كَغُيومٍ بَيْضاءَ، مِنْ أَعالي المَداخِنِ، ويَنْعَقِدُ في الجَوِّ، ثُمَّ يَتَبَدَّدُ مَعَ الهَواءِ. لِهذِهِ القُرى رائِحَةٌ أَيْضاً، وَصَلَتْ إِلى أُنوفِنا..

كانَ الوَقْتُ قَدْ شارَفَ عَلى آخِرِ المَساءِ. وها نَحْنُ تَماماً نُحَلِّقُ فَوْقَ قَرْيَتِنا العَظيمَةِ.

يا لَلْمَشْهَدِ، وما أَصْعَبَ وَصْفَ اللِّقاءِ!





كانَ قَلْبُ ابْنَتي الصَّغيرَةِ يَنْبِضُ بِقُوَّةٍ، وكَذَلِكَ كانَ قَلْبي. أَشَرْتُ إِلى المِئْذَنَةِ العالِيَةِ الخَضْراءِ، المُنْتَصِبَةِ في وَسْطِ البَلْدَةِ، وكَأَنَّها مَنارَةٌ، وكانَ صَوْتُ المُؤَذِّنِ يَنْطَلِقُ مِنْها. قُلْتُ لابْنَتي:

أَتَسْمَعينَ؟

الصَّوْتُ يَتَرَدَّدُ في الآفاقِ، مُرَدِّداً:

اللَّهُ أَكْبَرُ

اللَّهُ أَكْبَرُ

لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ..

لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ..

وتُرَجِّعُ صَداهُ الأَوْدِيَةُ والجِبالُ المُحيطَةُ.



كانَ مَنْزِلُنا، إلى جانِبِ المِئْذَنَةِ. ما زالَ عَلى عَهْدِهِ: نَوافِذُهُ الزَّرْقاءُ تَنْفَتِحُ عَلى حَديقَةٍ صَغيرَةٍ مِنَ الصُّبَّارِ والتّينِ والزَّيْتونِ. وكانَتْ أَصْواتُ انْفِجاراتٍ قَريبَةٍ تُسْمَعُ بَيْنَ الحينِ والآخَرِ، تَأْتي مِنْ جِهَةِ الجَنوبِ.




(١) السِرْب: الجماعة أو القطيع.

(٢) الريم هو الغزال وكفرا بلدة في الجنوب اللبناني والحطة غطاء الرأس للرجل.

حكايات ملوّنة

مجموعة قصص قصيرة كتبها
الشاعر محمد علي شمس الدّين

- العودة إلى المنزل
- شاعر صغير
- حكاية الجدّة أم عاصم
- إيهاب وأحلامه الزرقاء
- لغة الطيور
- صورة تذكارية مع عصفور
- حديقة الفصول الأربعة
- سناء وفراشات الثلج البيضاء
- أغاني المطر
- نلتقي إذا جاء المساء
- نيسان على العتبة
- حين تهبّ العاصفة
- صلاة زهرة عبّاد الشمس



حكايات ملوّنة

www.alhadaekgroup.com
ISBN 9953-464-76-6
9 789953 464763